المحاضرة الأول: الجزائر في عصور ما قبل التاريخ والعصور القديمة

تُعدّ الجزائر من أقدم مناطق الاستيطان البشري في العالم، إذ كشفت الاكتشافات الأثرية عن تعاقب حضارات وثقافات إنسانية منذ مئات الآلاف من السنين. وقد شكل موقعها الجغرافي، الواقع في قلب المغرب العربي والمطل على البحر الأبيض المتوسط، عاملاً أساسياً في جعلها فضاءً للتفاعل بين الحضارات الإفريقية والمتوسطية. فمنذ عصور ما قبل التاريخ، مروراً بفجر التاريخ وظهور الكتابة الليبية (التيفيناغ)، ثم قيام الممالك النوميدية، ووصول الفينيقيين والرومان والوندال، شهدت الجزائر تحولات سياسية واقتصادية وثقافية عميقة ساهمت في تشكيل شخصيتها الحضارية .

1. الجزائر في عصور ما قبل التاريخ

يقسم المؤرخون وعلماء الآثار مرحلة ما قبل التاريخ في الجزائر إلى عدة عصور زمنية رئيسية:

- العصر الحجري القديم الأسفل؛ الذي يبدأ من حوالي2.4 مليون سنة إلى حتى 300 ألف سنة قبل الميلاد الذي تميز بظهور الإنسان، الذي عرف صناعة أدوات حجرية بداية في موقع (عين الحنش) بسطيف و(تغنيف) بمعسكر.

- العصر الحجري القديم الأوسط؛ والذي يبدأ من حوالي 300 ألف سنة إلى 40 ألف سنة قبل الميلاد وتميز بالحضارة العاترية واستعمال الرماح، وتطور تقنيات الصيد.

- العصر الحجري القديم الأعلى؛ من حوالي 40 ألف إلى 10 آلاف سنة قبل الميلاد، الذي تميز بتطور الأدوات الحجرية وظهور الإنسان العاقل.

- العصر الحجري الحديث؛ من حوالي 10 آلاف إلى 3000 قبل الميلاد تقريبا تميز باستقرار الانسان وممارسته الزراعة وتربية الحيوانات وصناعة الفخار.

1.1. الحضارة الأشولية

تعد من أقدم الحضارات المكتشفة في الجزائر، إذ يعود تاريخها إلى أكثر من 500 ألف سنة، بينما تشير بعض الدراسات الأثرية إلى وجود استيطان بشري أقدم في شمال الجزائر من ذلك . وارتبطت بصناعة الفؤوس الحجرية الثنائية الوجه، ومن أهم مواقعها: عين الحنش (سطيف) ،تيغنيف (معسكر)، الهضاب العليا

2.1. الحضارة العاترية

وتعد الحضارة العاترية من أبرز الحضارات الإفريقية خلال العصر الحجري الأوسط، ظهرت حوالي ما بين 80 ألف–40 ألف سنة قبل الميلاد، وسميت نسبة إلى بئر العاتر بولاية تبسة.تميزت بـ: أدوات حجرية دقيقة، رؤوس سهام ورماح، تطور أساليب الصيد، بداية استعمال الزينة الشخصية .

3.1. الحضارة القفصية

امتدت بين 10000و6000 ق.م، وانتشرت في: تبسة وخنشلة وسطيف وقسنطينة ومن خصائصها صناعة أدوات دقيقة، كثرة أكوام الأصداف (الرغام)، بداية الاستقرار ، ممارسة الرعي والزراعة .

2. فجر التاريخ في الجزائر

يطلق مصطلح **فجر التاريخ** على المرحلة التي تفصل بين نهاية العصر الحجري الحديث وبداية التاريخ المكتوب، أي بين حوالي 3000و1000 **ق.م**، ومن أهم مميزاتها انتشار الزراعة، بناء القبور الجماعية، ظهور التنظيمات القبلية، ازدهار التجارة الصحراوية، تطور الصناعات المعدنية .

3. الرسوم الصخرية وحضارة الطاسيلي

تعد هضبة الطاسيلي ناجر من أعظم المتاحف المفتوحة في العالم، ويرجع تاريخ الرسوم إلى ما بين 10000و2000 ق.م، وقد صنف العلماء هذه الرسوم إلى مراحل: مرحلة الحيوانات الضخمة ، مرحلة الرعاة مرحلة الخيل، مرحلة الجمال، وتصور هذه الرسوم: الفيلة، الزرافات، الأسود، وحيد القرن، الطقوس الدينية، الرعي والصيد، وهو ما يدل على أن الصحراء الجزائرية كانت أكثر رطوبة وغطاءً نباتياً في تلك الفترات .

4. ظهور الكتابة الليبية (التيفيناغ)

يُعد ظهور الكتابة الليبية القديمة، التي تطورت إلى التيفيناغ، من أبرز مظاهر الانتقال من فجر التاريخ إلى التاريخ، ويرجع معظم الباحثين بداياتها إلى الفترة الممتدة بين القرن السادس والرابع قبل الميلاد، مع احتمال وجود أشكال أقدم في بعض المناطق الصحراوية . ومن خصائصها: تتكون من رموز هندسية ، تضم نحو 22–24 حرفاً في أقدم صورها، كتبت أفقياً وعمودياً، استعملها الأمازيغ في النقوش الجنائزية والملكية والدينية . **أهم مواقعها**: الطاسيلي، الهقار، الأوراس، نوميديا الشرقية، منطقة الجلفة. وتعد التيفيناغ أقدم نظام كتابي محلي معروف في بلاد المغرب القديم، ولا تزال مستخدمة بصيغتها الحديثة لدى الطوارق، كما اعتمدت رسمياً لكتابة الأمازيغية في العصر الحديث .

5. التواجد الفينيقي في الجزائر (حوالي 1100/1200 ق.م – 146 ق.م)

والفينيقيون هم شعب سامي استقر في الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، خاصة في مدن صور وصيدا وجبيل (في لبنان الحالي)، وازدهر نشاطهم البحري منذ مطلع الألف الأول قبل الميلاد، حيث اشتهروا بالملاحة وصناعة السفن والتجارة البحرية، وقد دفعتهم عدة عوامل إلى التوسع غربًا، من أهمها: ضيق المساحة الزراعية في موطنهم الأصلي، الحاجة إلى المعادن والأخشاب والعاج والجلود، لبحث عن أسواق جديدة لتصريف المنتجات الفينيقية، إنشاء محطات بحرية تؤمن طرق الملاحة نحو غرب البحر المتوسط وشبه الجزيرة الإيبيرية.

بدأ وصول الفينيقيين إلى السواحل الجزائرية منذ القرن الثاني عشر أو الحادي عشر قبل الميلاد، غير أن النشاط التجاري المنظم ازداد خلال القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد مع توسع التجارة المتوسطية، وقد مر هذا التواجد بمرحلتين أساسيتين:

اقتصر الوجود الفينيقي في البداية على إنشاء مراسٍ ومحطات بحرية صغيرة تستعمل للتزود بالمياه والغذاء وإصلاح السفن، إضافة إلى تبادل السلع مع القبائل المحلية، ثم تحولت بعض هذه المحطات مع مرور الزمن إلى مدن مزدهرة تضم مخازن وموانئ وأسواقًا ومعابد، وأصبحت مراكز للتجارة بين الساحل والداخل.

في هذا السياق؛ أسس الفينيقيون عدة مراكز تجارية على الساحل الجزائري، من أهمها:

- إيكوسيوم :(*Icosium*) الجزائر العاصمة الحالية، وكانت من أهم الموانئ التجارية.
- إيكجيلي :(*Igilgili*) جيجل، وتميزت بمينائها الطبيعي.
- روسيكاد :(*Rusicade*) سكيكدة، وكانت محطة مهمة للتبادل التجاري.
- هيبون :(*Hippo Regius*) عنابة، التي أصبحت لاحقًا من أهم المدن القرطاجية ثم الرومانية.
- صالداي :(*Saldae*) بجاية، واشتهرت بدورها التجاري.
- روسوكوروس :(*Rusucurru*) دلس.
- تيبازة :(*Tipasa*) التي أصبحت فيما بعد مدينة رومانية مزدهرة.
- شرشال (*Iol*) أيول : قبل أن تتحول لاحقًا إلى قيصرية في العهد الروماني.

اختيرت هذه المواقع بعناية لتمتعها بموانئ طبيعية وقربها من طرق التجارة البحرية. ومن جهة أخرى تميزت العلاقات بين الفينيقيين والسكان الأمازيغ بطابعها التجاري والسلمي في أغلب الأحيان، حيث اعتمد الفينيقيون على التبادل التجاري أكثر من اعتمادهم على الاحتلال العسكري، وشملت المبادلات: تصدير المعادن، خاصة الحديد والنحاس، تجارة الجلود والصوف والعاج، تبادل الحبوب والزيوت والماشية، استيراد الأقمشة والأواني والخزف والحلي والأسلحة.

كما نشأت علاقات اجتماعية وثقافية ساعدت على انتقال بعض العادات والمهارات الصناعية، وظهرت حالات من المصاهرة والاندماج بين بعض الفينيقيين والسكان المحليين.

لقد أسهم النشاط الاقتصادي الذي كان أساس الوجود الفينيقي في الجزائر، ربطت السفن الفينيقية الموانئ الجزائرية بمدن صور وصيدا وقرطاجة وصقلية وسردينيا وإسبانيا، مما جعل الساحل الجزائري جزءًا من شبكة التجارة المتوسطية. كما مارس الفينيقيون صناعات متعددة، منها؛ صناعة السفن والفخار والخزف، وصباغة الأقمشة بالأرجوان، صناعة الحلي المعدنية، واستخراج المعادن، كما أسهم الفينيقيون في تطوير بعض الأساليب الزراعية، خاصة زراعة الزيتون والكروم وتحسين تقنيات التخزين.

لقد ترك الفينيقيون آثارًا حضارية مهمة في الجزائر، من أبرزها؛ إدخال الأبجدية الفينيقية التي أثرت في تطور نظم الكتابة بالمنطقة، نشر بعض المعتقدات الدينية، مثل عبادة الإله "بعل" والإلهة "تانيت"، والتي انتشرت لاحقًا في العصر القرطاجي، بناء المرافئ والمخازن والمنشآت التجارية، إدخال تقنيات جديدة في الملاحة وصناعة السفن، تطوير العمران الساحلي وإنشاء مدن ذات تخطيط منظم. كما كشفت الحفريات الأثرية عن نقوش فينيقية، ومقابر، ولقى خزفية، وعملات تؤكد عمق الحضور الفينيقي في الساحل الجزائري.

ابتداءً من القرن السادس قبل الميلاد، أصبحت مدينة قرطاجة القوة البحرية الأولى في غرب البحر المتوسط، فانتقلت معظم المراكز الفينيقية في الجزائر إلى نفوذها السياسي والاقتصادي. وخلال هذه المرحلة تعزز النشاط التجاري، وتطورت المدن الساحلية، كما ازدادت العلاقات مع الممالك الأمازيغية، خاصة خلال العهد النوميدي، قبل أن تنتهي السيطرة القرطاجية عقب الحروب البونيقية وسقوط قرطاجة سنة 146ق.م لتدخل المنطقة مرحلة النفوذ الروماني.

6. الفترة النوميدية (تقريباً القرن3 ق.م– 46 ق.م)

تُعدّ الفترة النوميدية من أبرز المراحل التاريخية في بلاد المغرب القديم، إذ شهدت ظهور أول كيان سياسي محلي قوي استطاع توحيد أجزاء واسعة من الجزائر الحالية وتأسيس دولة ذات مؤسسات سياسية وعسكرية واقتصادية متطورة. وقد مثلت المملكة النوميدية نقطة تحول في تاريخ شمال إفريقيا، حيث انتقلت المنطقة من مرحلة القبائل المستقلة إلى مرحلة الدولة المنظمة، كما لعبت دورًا محوريًا في الصراع بين القوى الكبرى في البحر الأبيض المتوسط، خاصة قرطاجة وروما.

يطلق اسم نوميديا (*Numidia*) على المملكة التي قامت في القسم الشرقي والأوسط من الجزائر الحالية، مع امتداد نفوذها في بعض الفترات إلى أجزاء من تونس والمغرب وليبيا. وقد اشتُقت التسمية من الكلمة الإغريقية *Nomades* التي أطلقها اليونان على القبائل الرعوية المتنقلة، إلا أن هذا الوصف لا يعكس حقيقة المجتمع النوميدي الذي عرف الاستقرار والزراعة وبناء المدن منذ فترات مبكرة.

النوميديون هم السكان الأمازيغ الأصليين لشمال إفريقيا، قبل توحيد نوميديا كانت القبائل الأمازيغية تعيش في تنظيمات قبلية يقودها زعماء محليون، مع وجود مملكتين رئيسيتين: مملكة الماسيليين (*Massylii*) في الشرق ومملكة الماسيسيليين (*Masaesylii*) في الغرب.

كانت هاتان المملكتان تدخلان في تحالفات وصراعات مستمرة مع قرطاجة، ثم مع الجمهورية الرومانية خلال الحروب البونية (264–146 ق.م)، مما هيأ الظروف لظهور دولة نوميدية موحدة. ويُعد الملك ماسينيسا (238–148 ق.م)، مؤسس الدولة النوميدية الموحدة وأعظم ملوكها. نشأ في كنف الأسرة المالكة للماسيليين، وشارك في بداية حياته العسكرية إلى جانب القرطاجيين، ثم تحالف مع الرومان أثناء الحرب البونيقيةالثانية، واستطاع بعد انتصارهم سنة 202ق.م في معركة زاما أن يوحد معظم القبائل النوميدية تحت سلطته.

اتخذ ماسينيسا من سيرتا (قسنطينة الحالية (عاصمة لمملكته، وعمل على ترسيخ دعائم الدولة من خلال توحيد القبائل تحت سلطة مركزية، وإنشاء جيش نظامي قوي يعتمد على الفرسان المشهورين بمهارتهم، وتشجيع الزراعة والاستقرار بدل الترحال، وتطوير المدن وشق الطرق وتنظيم الإدارة، إقامة علاقات دبلوماسية مع القوى المتوسطية. وعُرف عنه قوله المشهور" :إفريقيا للأفارقة"، وهو شعار يعكس رغبته في تحرير المنطقة من الهيمنة الأجنبية.

لقد تميزت المملكة النوميدية بتنظيم سياسي متطور مقارنة بالممالك المجاورة، إذ يمتع الملك بسلطات واسعة شملت قيادة الجيش، وإدارة شؤون الدولة، وإبرام المعاهدات، وسك النقود. كما يساعد الملك مجلس من كبار النبلاء وزعماء القبائل، كما قُسمت المملكة إلى وحدات إدارية يشرف عليها مسؤولون محليون يمثلون السلطة المركزية، الأمر الذي ساعد على تعزيز وحدة البلاد.

كما عرفت المملكة نظامًا ماليًا يعتمد على الجباية والعائدات الزراعية والتجارية، إضافة إلى سك عملة نوميدية حملت أسماء وصور بعض الملوك. وشهد الاقتصاد النوميدي ازدهارًا ملحوظًا، خاصة في عهد ماسينيسا وخلفائه، واعتمد على عدة قطاعات أهمها: الزراعة؛ التي شكلت الزراعة أساس الاقتصاد، حيث شُجعت زراعة القمح والشعير والزيتون والكروم وشجار الفاكهة.

كما انتشرت تقنيات الري واستصلاح الأراضي، حتى أصبحت نوميديا من أهم المناطق المنتجة للحبوب في غرب البحر المتوسط، واحتلت أيضا تربية الأغنام والأبقار والخيول مكانة مهمة، واشتهرت الخيول النوميدية بجودتها، واستُخدمت في الحروب وفي التجارة.

وازدهرت التجارة الداخلية والخارجية بفضل موقع نوميديا بين الصحراء والبحر المتوسط، فكانت تصدر الحبوب وزيت الزيتون، والجلود والحيوانات والمعادن. كما ارتبطت بعلاقات تجارية مع قرطاجة وروما والمدن الفينيقية.

وبخصوص الحياة الاجتماعية؛ تكوّن المجتمع النوميدي من القبائل الأمازيغية التي جمعتها روابط القرابة والانتماء القبلي، مع وجود طبقات تضم الأسرة المالكة والنبلاء والمحاربين والفلاحين والحرفيين.

وقد شهدت المدن تطورًا عمرانيًا، وظهرت مبانٍ عامة ومعابد وأسوار ومقابر ملكية، كما استُخدمت اللغتان الليبية والبونية، ثم انتشرت اللاتينية بعد التوسع الروماني. وشهدت هذه الفترة تطور الكتابة الليبية القديمة التي تعد أصلًا للكتابة التيفيناغ المستعملة لدى الطوارق اليوم.

المراجع:

- فرنسيس أور، حضارات العصر الحجري القديم، ترجمة: سلطان محسين، ط2، مطابع ألف باء الأديب، دمشق، 1995.

- ك. ابراهيمي، تمهيد حول ما قبل التاريخ في الجزائر، ترجمة: محمد البشير شنيتي ورشيد بوروبة، وزراة الثقافة، الجزائر، 2007.

- محمد الصغير غانم، مواقع وحضارات ما قبل التاريخ، في بلاد ما قبل التاريخ، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2003.

- ليونال بالو، الجزائر في ما قبل التاريخ، ترجمة: محمد الصغير غانم، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2005.

- محمد الصغير غانم، المملكة النوميدية والحضارة البونية، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2006.

يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، ط3، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2017، ج1(الجزائر القديمة والوسيطة)